

الفصل الثالث

تحقيق الذات

وُلدت البذرة الأولى للحضارة الإسلامية مع بعثة النبي محمد ﷺ، ونبئت هذه البذرة في أرض رعاها النبي وسقاها القرآن العظيم من الوحي الإلهي الذي تميز بعقيدة حقة تنبئ على التوحيد والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتبجيل كافة الأنبياء والمرسلين، وتميز بعبادة قاعدتها الأساسية هي الصلاة التي تقيم وتقوى صلة الإنسان بربه في صلة تنبع من عقل وقلب الإنسان وتسمو بالضمير إلى أعلى مراتب الأخلاق الفاضلة والسلوكيات الحميدة.

وانبنى الدين الخاتم وانبت الحضارة التي تولدت منه بذرتها الأولى، على العلم والإيمان وعلى السلام والقوة التي تحميه وتمكن من الدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وتروع الذين يكيدون له أو يفكرون في الاعتداء على أهله، وجاءت آيات القرآن العظيم ترفع من قدر العلماء وتبين أن طريق العلم يؤدي في النهاية إلى الجنة، كما فرقت آيات القرآن العظيم بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون، ورفعت العلماء إلى مرتبة ورثة الأنبياء في علومهم.

والقرآن نفسه هو معجزة علمية، وهو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، بل إن الذين يعلمون تأويل آيات القرآن إنما هم النخبة من العلماء الراسخين في العلم.

إن الأرض التي ترعرعت فيها بذرة الإسلام الأولى والتي انبتت عليها بعد ذلك حضارة هذا الدين، هي هؤلاء النفر من الصحابة الذين التفوا حول الرسول واتبعوه عن

صدق ومحبة، ينميها الإيمان ويدعمها نور هداية محمد ﷺ الذي كان يمشى به في الناس، ورحمته وليته ورقة قلبه، وهى الصفات التى تعامل بها مع هؤلاء الصحابة من المهاجرين والأنصار وسائر الناس، لقد حمل هؤلاء الصحابة الأوائى مسئولية تعليم ونشر الدين مع النبى حال حياته وبعد انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، واستطاعوا أن يؤسسوا والتابعون من بعدهم، بنياناً حضارياً هائلاً امتد بعد ذلك إلى أقصى الشرق والغرب، وأفرزت هذه الحضارة العظيمة التى قامت على أصول الإسلام والطاقة الروحية الهائلة التى نشأت عنه وبه، بنياناً شامخاً من العلوم وتطبيقاتها ومن الأخلاق وآدابها، ومن المساواة بين الناس بلا أى تمييز بينهم إلا بالعلم والأخلاق.

وكما هو الشأن فى الحضارات منذ العصور الأولى للتاريخ وحتى عصرنا الحالى، فقد صانت حضارة الإسلام نفسها عن طريق تلك المبادئ التى ذكرناها - وغيرها - تسندها قوة تحميها من أعدائها وتعمل على تحرير الإنسان وتوفير وضمان حرية العقيدة له، وكان التوحيد هو أحد الأسس الهامة التى انبنت عليها حضارة الإسلام، فأكد عليها القرآن العظيم منبع ومرجع هذه الحضارة التى تولدت عنه تكملة لما جاءت به الأديان السماوية السابقة التى دعت أقوامها إلى نفس المبادئ ذات الجوهر المتماثل وهو توحيد الله والإسلام له، وقد كانت أولى عوامل أفول ونضوب معين هذه الحضارة الجديدة هو الانغلاق فى العلوم والمعارف وشيوع التقليد للأولين الذين كان الاجتهاد العقلى هو سبيلهم إلى تنمية المعارف والعلوم فى شتى مجالاتها حتى الوقت الذى تم فيه إعلان قفل باب الاجتهاد لأسباب عديدة أثرت بالسلب على استمرار حركة ونمو وتقديم وتحديث فكر المسلمين فى كافة ميادين العلم المعروفة فى ذلك الوقت وما استجد منها منذ عصر النهضة الأوروبية وثورات البخار ثم الصناعة ثم الذرة ثم نمو واتساع المعارف والعلوم وتطبيقاتها التكنولوجية على نحو ما نشهده اليوم.

ولا نشك لحظة فى أن النهضة الحديثة هى أولى خطوات إعادة بناء حضارة المسلمين الغائبة التى تتصل بمقوماتها، بالنظرة الدقيقة، بعوامل قد يكون من أهمها التربية والتعليم، والثقافة الدينية المستنيرة والثقافة العامة، والطاقة الروحية اللازمة للعمل

والعطاء، وتنوير العقل المسلم وتقدير دوره في البناء، والاجتهاد والتحديث في إطار مفهوم الأصالة والمعاصرة، والإدارة والسياسة والاقتصاد والأخلاق والاجتماع والقوة العسكرية اللازمة لحماية السلام وكل المنجزات.

ومن الظواهر الجديرة بالدراسة والتحليل، اختلاف واقعنا السلوكي عن المستوى المتقدم لمبادئ وتعاليم وتوجيهات وروح ديننا الإسلامى، ولعل هذا هو ما قصد إليه الإمام محمد عبده عندما زار فرنسا، وقال آنذاك «رأيت إسلامًا بلا مسلمين، وفي بلادنا رأيت مسلمين بلا إسلام».

ربما تضافرت في إحداث هذه الظاهرة عوامل متعددة منها الفقر والجهل والامية وقصور التربية والتعليم والثقافة سواء في الأسرة أو المدرسة أو المعهد أو الجامعة، وتعطيل استعمال العقل والتفكير العلمى التابع منه، وربما - أيضًا - النقص في الخدمات التى هى حق لكل مواطن في الدولة إلى جانب تحييد زيادة معدلات الإنتاج وخطط التنمية نتيجة الزيادة المطردة في عدد السكان، يضاف إلى ذلك تخلف الخطاب الدينى عن مواجهة الظاهرة في أسبابها وأوجه علاجها والقضاء على روح اللامبالاة التى تقف عقبة أمام تحقيقها.

إنه من خلال هذا الفقر الدينى والتخلف الحضارى تكدست مفاهيم لا تتماشى مع مفاهيم الإسلام الصحيح، كانت ستتغير بالضرورة لو أننا كنا قد أعددنا القوة الشاملة - مادية ومعنوية - وفق ما يدعوننا إليه الإسلام لنواجه بها التحديات المعاصرة وما هو من المتوقع أن يصحبها من تطورات خطيرة في حياة الإنسان وأوضاعه نتيجة استمرار التقدم العلمى والتكنولوجى بتأثيراته المختلفة وما قد يحمله من تحديات للأديان كلها.

إن حاجتنا الروحية ملحة لاشك في ذلك، ولكن حاجتنا المادية أكثر إلحاحًا؛ لأنها الجانب الذى تخلفنا فيه منذ وقت بعيد لأسباب كثيرة، والذى يتحتم علينا أن نوفره لنواصل عمل أسلافنا.. نبني ونشيد كما بنوا وشيدوا.. وندرس ونتعلم كما درسوا وتعلموا.. ونحدث ونطور كما حدثوا في زمانهم وطوروا.. وسنلجأ في ذلك كله إلى العقل، نعتز بدوره وقدراته، نحترمه ونقدره، نستغله ونستعمله، فهو المنحة الإلهية

التي كرمنا الله بها، ومنذ غاب عن المسلمين دور العقل ونحن نتخبط في تيه الأوهام والقشور والشكليات وضيق الأفق في تفكيرنا الديني، ونعيش تخلفنا المادي نحيطه بالتبريرات والمفاهيم المبنية على أساسه وفي ظلاله دون أن نستفيد من دروس الازدهار الحضارى والتراجع الحضارى أيضًا، في زماننا نحن الحاضر والمستقبل. بل نكتفى بالتشدد بالزمن الماضى وإنجازاته وماحوت أجياله من عبقریات، وفرضت علينا مؤثرات التخلف مفاهيم في الدين تبعد كثيرًا عن مفاهيم الإسلام الصحيح السمع التي تدعو إلى الأخوة العامة بين الناس والمحبة والسلام بينهم والتعاون وتقديم النصيحة بالحكمة والموعظة الحسنة وهى تركز على العقل «العلم» والإيمان «الأخلاق والسلوكيات الأخلاقية».

وقديماً قال المسيح سلام الله عليه «الله محبة» (يوحنا (٤): ٨)، وقال «أحسنوا إلى مبغضيك، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم» (لوقا: ٦: ٢٧-٢٨).

وقال محمد صلوات الله وسلامه عليه: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً». (البخارى ومسلم).

إننا نحتاج اليوم إلى دعائم العقل والروح معاً في عملنا وسعينا نحو التقدم، والنهضة المستنيرة التى يبنها الإنسان، ومن ثم احتياجنا إلى بناء هذا الإنسان كما يبنه الإسلام بتعاليمه المستنيرة المتوازنة وكذا المسيحية بتعاليمها الروحية الأخلاقية في ظل مجتمع يتعاون كل أفرادہ۔ رجالاً ونساء۔ على إقامة بنیان حديث للدولة العصرية تسير بعقولنا وأرواحنا (أى بالعلم والإيمان والأخلاق) في خطوات إقامتها وهو الأمر الذى من اليسير تحقيقه۔ من وجهة نظرى۔ طالما توافر الهيكل والنظام الواعى القادر على إدراك مشاكل التطبيق وحلها في ظل الوحدة الوطنية الجامعة لكل المواطنين بلا أى تفرقة بينهم.

إن التحدى الذى تواجهه الدولة والأمة اليوم هو تحدى «عقلى»؛ لأن القوة المادية والتقدم المادى يقوم بالكلية على النشاط العقلى للإنسان الحر، كما أن مواجهة المشاكل

والآثار والسلبيات الناجمة عن التخلف أو النمو يحتاج إلى الاجتهاد العقلي المستند إلى المعرفة والعلوم الحديثة، ونحن نعتقد أننا يجب علينا أن نتقدم إلى مستوى التوجهات المبدئية للإسلام والقواعد التي بنى عليها حضارته التي قعدنا عن الارتقاء إلى مستواها النظري وتأخرت بسبب ذلك سلوكياتنا الواقعية حتى ساءت نظرة الآخرين إلينا من خلال هذا التأخر السلوكي. لقد أصبح من ضرورات العمل الديني، الإسلامي والمسيحي، الالتزام بمبادئ هي دعائم العمل من أجل التقدم وعبور كافة مشاكل التخلف والتأخر الكثيرة.. هذه المبادئ تقوم على التوحيد، توحيد الكلمة وتجاوز سلبات الطائفية والمذهبية والتفرق، مع ما يصاحبها من تعصب ضار أو تطرف مضر مبنيين كليهما على ضيق أفق الفكر وقلة الثقافة والتزمت والتقليد الحرفي دون مراعاة لظروف متغيرات الواقع المتأثر بدوره بمتغيرات الزمان والمكان والظروف الوطنية والإقليمية والعالمية المحيطة، كما تقوم هذه المبادئ على البناء، بناء اقتصاد وطني قوى يرفع دخول المواطنين ويحسن مستواهم المعيشي ويجنبهم كافة أشكال السلوكيات المنحرفة المترتبة أساساً على تدنى المستويين: الاقتصادي والمعيشي، ومع هذا التدنى تكون أولوية العمل الديني هي العناية بالإنسان الفرد ومتطلباته الأساسية والأسرة التي هي اللبنة الأساسية للمجتمع.

إن مشكلات التخلف والتأخر كثيرة ومعروفة وخطيرة، ومنها على سبيل المثال الأمية والفقر وانعدام أو قلة الثقافة وسوء الأحوال المعيشية والصحية والبطالة وتدنى مستوى الأخلاق والسلوك الأخلاقي الحضاري ربما نتيجة مشكلات المعيشة وعدم توافر المرافق والخدمات الضرورية وتدهور مستوى التربية الأسرية، وعدم النظام وعدم اتقان العمل وعدم احترام العقل أو استخدامه الاستخدام الأمثل، وفقدان روح الانتماء الوطني والتكافل الاجتماعي والتعاون من أجل صالح المجموع ومعرفة الحقوق والواجبات الإنسانية، مع الاهتمام بالشكليات والقشور والتافه من أمور الدين نتيجة ضيق أفق الفكر بصفة عامة والديني بصفة خاصة، وقصور الخطاب الديني نفسه.

إن حقائق الواقع وظروفه السائدة في مصر منذ زمن تؤدي بنا إلى القول بأنه يصعب

جدًا أن تنبى دولة حديثة، متقدم وراقية، إلا بتجاوز التخلف والقضاء على كل أو معظم أعراضه وأثاره السلبية فى المجتمع والدولة القائمة. ويمكننا أن نقول باطمئنان قلب وىقين عقل ورجاء فى الله، أن المرجعية الإسلامية للدولة هى طريق مصر الأمن والمضمون لبناء دولتها الحديثة المدنية القانونية المتقدمة والقوية المتجاوزة للتخلف. ومع ذلك فى ظل الديمقراطية تظل الكلمة الحرة لشعب مصر هى الفيصل فى اختيار المرجعية الإسلامية للدولة المدنية الحديثة أو اختيار غيرها من المرجعيات ورؤى الإصلاح والتقدم.

